روضة الحكايات!!
(٥)

لمْ ألعبْ في طُفولتي!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

اعتراضٌ في محلّه!!

بعد انتهاءِ كلمةِ الطالبِ (سليمان) في القاعةِ التابعةِ لمعهدِ تَحفيظِ القرآنِ الكريمِ ، وقفَ مديرُ المعهدِ ، وأثنىٰ علىٰ المُحاضرةِ ، وقال في آخرِ مداخلَتِه :

لقد تَعَرَّفْنا من خلالِ المُحاضرةِ على أَحَدِ أعلامِ الأئمةِ (ابن الجوزي) ، وحبّذا لو يقومُ الطلابُ والأساتذةُ بتقديمِ المَزيدِ من المُحاضراتِ ، ليتكوَّنَ لدينا معلوماتٌ وافية عن رموزِنا التاريخية ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

ورفعَ الأستاذُ (نور الدين) يدَه ، واستأذَنَ

المديرَ وقال : لقد استمَعْنا إلىٰ عِدّةِ محاضراتٍ قيِّمةٍ ، وأُشْهِدَ اللهَ أني ـ وأنا أستاذُ مادةِ التاريخ ـ استمعتُ إلىٰ بعضِ الأمورِ المتعلِّقَةِ بتلكَ الرُّموزِ التاريخيةِ وكأني قد سَمِعْتُ بها لأولِ مرةٍ... ، ولكنْ لديّ اعتراضٌ ، وأرجو أن تتقبّلوه من أخٍ لكم .

فقال المدير : هات ما عندك يا أبا زَينِ العابدين ، فقد عوَّدْتَنا تقديمَ كلِّ ما فيه فائدةٌ للجميع...

وابتسمَ الأستاذُ ثم قال : وأما مُلَخَّصُ اعتراضي علىٰ مَسِيرةِ المُحاضراتِ في هذا المَعْهَدِ ، فهو : لماذا كلُّ الشخصياتِ التي تمَّ الحديثُ عنها تمَّ اختيارها من المَشْرِقِ العربي ، ولم تَكُنْ أيّةُ واحدةٍ منها من المَغْرِبِ العربي؟!

وتَمْتَمَ المديرُ قائلاً :

حقاً : إنّ (ابن الجوزي) و(القاسم بن سلام)

و(العز بن عبد السلام) و(الليث بن سعد) كلّهم من المَشْرِق... ، ثم رَفَعَ المُديرُ صوتَه قائلاً : ولذلك ستكونُ المُحاضرةُ القادمةُ عن واحدٍ من بلاد المَغربِ ، فمَنْ سيتقدَّمُ لذلك العملِ؟ واقترحَ الأستاذُ (نور الدين) علىٰ إدارةِ المَعْهَدِ أن يقومَ بذلك العَمَلِ الطالبُ (حسيب) ، وذلك لتفوّقه في مجالاتِ البحثِ والدراسة ، ولأنّ أخوالَه وأمَّه يَنْحَدِرونَ من إحدىٰ بلادِ المَغْرِبِ...

... ونودِيَ علىٰ (حسيب) ، ولمّا جَلَسَ في غُرفةِ الإدارةِ ، وبينَ الطلابِ والأساتذةِ ، قَدَّمَ له المُديرُ اقتراحَ أستاذِ التاريخ... . فوافَقَ علىٰ الفَورِ!!

* * *

لولا عياض ما عُرف المغرب!!

واعْتكَفَ (حسيب) في قاعةِ المكتبةِ العامّةِ ، واستَغرقَ في البحثِ والتفتيشِ ، وسَجَّلَ كثيراً من النقاطِ المُضيئةِ ، وفي اليومِ الأخيرِ من الأسبوعِ قامَ بعمليةِ غربلةٍ وتَمحيصٍ لكلِّ ما كُتِبَ عن القاضي عِياض ، وحارَ في اختيارِ عنوانٍ مثيرٍ وجذّاب .

ولما أَطْلَعَ أستاذَه (نور الدين) علىٰ ما كَتَبَ ، اختارَ له عنواناً مُثيراً ، هو : (لولا عياضٌ ما عُرف المَغْرِبُ) .

و... لمّا كان مَوعدُ المُحاضرةِ ، جَلَسَ (حسيب) إلىٰ جِوارِ مديرِ المَعْهدِ ، وابتدأ حديثَه

بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة : ١١] .

ثم خاطَبَ الحاضِرينَ قائلاً : أيُّها الأحبَّةُ! سيدورُ حديثُنا هذهِ الليلةَ حَولَ تَرجَمَةِ حياةِ أَشهرِ علماءِ المَغربِ العربيِّ علىٰ الإطلاقِ ، ولا غَرابَةَ في ذلك ، فقد قيلَ : لولا عياضٌ ما عُرِفَ المَغْرِبُ!!

وقد جَمَعْتُ لكم بعضَ المعلوماتِ من كتبِ التراجِمِ والسِّيَرِ والتاريخِ ، أُلَخِّصُها بما يلي :

في مَضِيقِ جبلِ طارق ، وعند التقاءِ البحرِ الأبيضِ المتوسط مع المحيط الأطلسيِّ ، تَقَعُ مدينةُ (سبتة) ، وفي سنة (٤٧٦هـ) وُلِدَ القاضي عياضُ بن موسىٰ اليَحْصُبِيُّ ، وشاءَ اللهُ سبحانه أن تكونَ أسرتُه أسرةً كثيرةَ الأمجادِ ، معروفةً بالعلمِ والصَّلاحِ ، والجِهادِ والصَّدَقاتِ .

ولذلك نشأ (عياضٌ) بينَ العلماءِ والمُحقّقين ،

وأقبل علىٰ حِفْظِ كتابِ الله منذ الصّغَرِ ، وكان كثيراً ما يلتقي بالعلماءِ وطلابِ العلم ، القادمين إلىٰ (سبتة) أو المارّين فيها ، فيستفيدُ ويُفيد .

ثم اتّسعتْ نشاطاتُه ، فاهتمَّ بعلومِ الحديثِ الشريف ، وبعِلمِ الأصولِ ، وتَمَذْهَبَ بالمذهب الفقهيِّ المالِكي ، وعَكَفَ علىٰ دراسةِ علومِ اللغةِ العربية ، و...

وبقي يُجاهدُ في سبيلِ تحصيلِ العلوم المُفيدةِ ، فاستفادَ وأفاد ، لذلك كان إذا تَذَكَّرَ عَهْدَ الطفولةِ قال :

إنني لم أعرف الطفولةَ ، فلا أنا لَهَوْتُ فيها ، ولا أنا لَعِبْتُ ، إنما منذ بدايات حياتي وأنا في طَلَبِ العِلمِ!!

* * *

عطاءات بلا حدود

تابع (حسيب) الحكايَةَ قائلاً :

ولعلَّ في تَسميةِ القاضي باسْمِه (عطاء) من الحِكَمِ الشيء الكثيرَ ، فهو بحقٍّ عطاءٌ كلُّه :

ففي مَجالاتِ التدريسِ كان له باعٌ طويلٌ ، فتارةً كان يُدرّسُ الحديثَ الشريف ، وتارةً يُخَصِّصُ بعضَ الدروسِ للفقهِ والأصول... ، وكان في مَجْلِسِه من الفوائدِ الشيءُ الكثيرُ ، وكان مَنْهَجِياً في التدريسِ ، جامِعاً بين المُتْعةِ والفائدة... أمَّا في مجالاتِ القَضاءِ ، فقد بَذَلَ كلَّ ما في وُسْعِه لإقامة العَدْلِ وتَبديدِ الظُّلْمِ ، حتىٰ إنه بقي في ذلك المَنْصِبِ زُهاءَ خَمْسَ عشرة سنة .

وعَمِلَ أيضاً في مَجالاتِ الخَطابةِ ، والإفتاءِ ، والشورىٰ ، وعُرِفَ عنه الجَهْرُ بالحقِّ وعَدَمُ الخَوفِ إلا من الله سبحانه وتعالىٰ .

أما عطاءاتُه في مَجالِ التأليفِ فذاكَ أمرٌ كبيرٌ كبير ، فقد امتازتْ تأليفاتُه بِتَحَرِّي الصّوابِ ، وذِكْرِ الأسانيد ، والأمانةِ العلميةِ ، والمَوْضوعيةِ ، والإخلاصِ لله تعالىٰ ، وعَدَمِ التعصُّبِ ، وحُسنِ الأدبِ مع الآخرين ، و...

ومن أهمِّها : (إكمالُ المعلم بفوائدِ صحيح مسلم) و(اختصارُ كتاب شرف المصطفى ﷺ) و(مشارقُ الأنوار علىٰ صِحاحِ الآثار) و(تَرتيبُ المَداركِ وتقريب المسالِكِ لمعرفة أعلامِ مَذْهَبِ مالك) و(الإعلامُ بحدودِ قواعدِ الإسلام) و(المَقاصد الحِسَانُ فيما يَلْزَمُ الإنسان) و(السيفُ المَسْلولُ علىٰ من سَبَّ أصحابَ

الرسول ﷺ) و(الجامعُ في التاريخ) وغيرها...

لكنَّ أشهرَ كتبِه وأعظمَها قدراً هو كتابُه (الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ) وهو كتابٌ في السيرة النبوية ، لكنه امتازَ عن غيره من كتبِ السيرةِ بأنه ضَمَّنه بعضَ جوانبِ العقيدةِ ، وأَكْثرَ فيه من الحُجَجِ القويةِ ، وكَتَبَهُ بأسلوبٍ سَهْلٍ وبديع ، ولذلك أَكثرَ العلماءُ من تَدريسِه وشَرْحِه ، و...

ولما عُوتِبَ القاضي عياض علىٰ كَثرةِ إعادةِ تَدريسِ (الشفاء) وكثرة الاستشهادِ ببعضِ ما جاء فيه ، قال في الجواب :

فقالوا أراكَ تُحِبُّ (الشِّفا)

وتُخْبِرُ فيه عَنِ المُصْطَفىٰ

فقلتُ : لأني عَليلُ الفُؤادِ

وكُلُّ عليلٍ يُحِبّ الشِّفا

فـأكـرم بـالقـاضـي فـي ذاك... وفـي كتبـه وعطاءاتِه.. رَحِمَه الله...

* * *

obeikandl.com

كان إماماً في علوم كثيرة!!

وتابع (حسيب) الحكايةَ بالقولِ :

ومن أهمِّ الصفاتِ التي اتَّصَفَ بها القاضي عياضٌ أنه كانَ رجلاً مَوْسُوعِيّاً ، أيْ كان علىٰ معرفةٍ بأنواعِ العلومِ المختلفةِ ، ورَحِمَ اللهُ الحافِظَ ابنَ كثيرٍ عندما قال فيه :

(... كانَ إماماً في علومٍ كثيرةٍ ، كالفقهِ ، واللغةِ ، والحديثِ ، والأدبِ ، وأيامِ الناس)... ، ورَحِمَ اللهُ العلامةَ الخَفاجي عندما مدح القاضيَ (عياض) بقولِه :

هـو الإمـامُ الـذي سـارَتْ مـآثِـرُهُ

في الشَّرْقِ والغَرْبِ سَيْرَ الشمسِ والقمرِ

وكَمْ له مِنْ تآليفٍ قد اشْتُهِرَتْ

بكلِّ قُطْرٍ ، فَسَلْ تُنْبِئْكَ بالخَبَرِ

إضافة إلىٰ ميزةٍ أخرىٰ امتازَ بها ، وهي مَحبتُه للعلمِ وأهلِه ، ولذلك كان يقولُ عن نفْسِه - حتى بعد شُهْرَتِه وذُيوعِ صِيتِه - : أنا طالبُ علمٍ!!

علماً أنه كان رمزاً من رموزِ العلمِ والفقهِ والخطابةِ والأصولِ و... ، وحتىٰ في مجالاتِ الشِّعرِ كانَ له باعٌ طويلٌ ، من ذلك تلك القصيدةُ الشهيرة والتي مَدَحَ فيها النبيَّ ﷺ ، ومن أبياتِها الرائعة :

يا دارَ خَيرِ المرسلينَ ومَنْ بهِ

هُدِيَ الأنامُ وخُصَّ بالآياتِ

عندي لأجْلِكَ لَوعةٌ وصَبابةٌ

وتشوُّقٌ متوقِّد الجَمَراتِ

وعلـيَّ عَهْـدٌ إنْ مـلأتُ مَحـاجِـري

مِـنْ تِلْكُـمُ الجُـدْرانِ والعَـرَصـاتِ

لأُعَفِّــرَنَّ مَصُــونَ شَيْبــي بينهــا

مِــنْ كَثْــرَةِ التقبيــلِ والــرَّشَفــاتِ

لــولا العَــوادي والأعــادي زُرْتُهــا

أبـداً ولـو سَحْبـاً علـىٰ الـوَجَنـاتِ

لكـنْ سـأُهْـدي مِـنْ حَفيـلِ تَحيّتـي

لِقَطيــن تلــكَ الــدارِ والحُجُــراتِ

أزكـىٰ مِـنَ المِسْـكِ المُفَتّـقِ نَفْحَـةً

تَغْشــاه بــالآصــالِ والبَكَــراتِ

وتَخُصُّــه بــزواكــيَ الصَّلَــواتِ

ونَـواصـيَ التسليـمِ والبَـرَكـاتِ

* * *

... ومات مسموماً!!

وكالعادةِ ، كَثُرَ حُسّادُه ومُبْغِضوه ، ووصلَتِ المسألةُ إلىٰ مُحاولةِ قَتْلهِ أكثرَ من مرّة!

وقد تَحَقَّقَ ذلك عندما أَمَرَ الأميرُ ، فدُسَّ له السُّمُّ ، فماتَ شهيداً ، وكان ذلك يومَ الجمعة سنة (٥٤٤هـ) ، ودُفِنَ في مدينة مَرّاكُش بالمَغْرِبِ...

رَحِمَ اللهُ عالمَ المَغْرِبِ ، ومُحَدِّثَها ، وفقيهَها ، والحمد لله رب العالمين...

* * *